

وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

على محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

جميع الحقوق محفوظة للوزارة

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م

سورة الجن مكية

وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ

[أوحى] الإيحاء في اللغة أن تلقى إلى غيرك ما تريد أن تعلمه إياه بواسطة الإيماء أو الإشارة أو الرسالة أو الكتابة ، ثم غلب استعماله فيما يليق إلى الأنبياء من عند الله . وفي الوحي معنى الإخفاء والسرعة ، فما يليق وحيا يكون خفيا سريعا . و [استمع] تكلف أن يسمع وأصغى أذنه ليسمع ، و [نفر من الجن] — رهط منهم ما بين الثلاثة إلى العشرة .

ونبيننا صلى الله عليه وسلم لما أصغى إليه هؤلاء النفرواستمعوا تلاوته للقرآن لم يكن عالما بهم ، ولا شاعرا بمكانهم ، ومن ثم قال له ربه : ((قل أوحى إلى)) أى قل يا محمد لقومك إن الله أوحى إليك ((أنه استمع نفر من الجن)) وأصغوا إلى قراءتك .

وكان من خبر ذلك كما في الترمذى وغيره أنه صلى الله عليه وسلم انطلق في نفر من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، حتى إذا كانوا بوادى نخلة (موضع على ليلتين من مكة وعلى ليلة من عكاظ) — نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه الصبح ، فمر بهم أولئك النفرومن الجنة ، وسمعوا رسول الله يقرأ القرآن، فاستمعوا إليه مصغيين متدبرين ، فأمنوا به ، ورجعوا إلى قومهم منذرين . وكان أولئك النفروفيما روى عن ابن عباس رضى الله عنه من جن نصيبين ، وهى مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى بلاد الشام . وقال ابن عباس أيضا إنه صلى الله عليه وسلم ما قرأ على أولئك النفرومن الجن، ولا رآهم يومئذ، ولا علم بمكانهم حتى أوحى الله إليه بأمرهم في هذه السورة ما أوحى .

فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾

وقد قص الله علينا خبرهم أيضا في سورة الأحقاف مذ قال تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من عند ربهم يصديق لمن بآياته . يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) إلى آخر الآيات . وفيها حض لقومهم على الإيمان بالقرآن كما آمنوا بالتوراة التي أنزلت على موسى من قبل ، وأنهم إن لم يجيبوا داعي الله لا يعجز ربهم عن أخذهم بالنكال والعذاب .

وقوله في سورتنا هذه : (فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا الخ) معناه أنهم بعد أن استمعوا القرآن وتدبروه رجعوا إلى قومهم فقالوا لهم (إنا سمعنا قرآنا عجبا) ، أى موضعا للغرابة والدهشة من جهة مباينته لأمثاله ونظائره من الكتب ، في حسن نظمه ، وبلاغة أسلوبه ، وما حواه من بديع الحكم ، وبالغ العظات والعبر .

نخبر هؤلاء النفر من الجن في السورتين متوافق متوارد على شيء واحد ، وهو استماعهم للقرآن ، وإعجابهم به ، وإيمانهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فرجوعهم إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان والتصديق .

ويقفهم من قول هؤلاء النفر : (تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) أنهم كانوا على دين النصرانية ؛ لأن الإسلام وهو يحاج النصرانية كثيرا ما يستند في محاجتها على نفى صاحبة والولد .

وقد كبر على عقول بعض أبناء هذا العصر الضعيفي الثقة بأمر الغيب وعالم الروحانيات أن يفهموا خبر هؤلاء النفر — من الجن الذين استمعوا إليه صلى الله عليه وسلم فآمنوا به — إلا على ضرب من التأويل — فقالوا : إن أولئك النفر طائفة من نصارى نصيبين ، وفدوا عليه صلى الله عليه وسلم كما وفد عليه نصارى نجران ، وأنهم جاءوه مجتنبين مستخفين متكرين لبعض الأسباب ، فلم يجبوا أن يعلن أمرهم أو يراهم أحد من الناس ، وبذلك أمكنهم أن يسمعوا قرآنه ويعقلوا دعوته . أو هم نفر من التجار والأفاقين : قصدوا سوق عكاظ وشهود موسمهم ، ففروا به صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، فأصغوا إليه يتلو القرآن من حيث لا يشعرون ، فلما رجعوا إلى بلدتهم

أخبروا قومهم بخبره ، وعجيب أمره ، ومعجز قرآنه ، فسيماهم الوحي السماوى جنا لهذا السبب ، كما سميت الإبل فى الحديث جنا . أخرج الإمام الشافعى فى مسنده "إذا أدركتم الصلاة فى أعطان الإبل فانخرجوا منها فصلوا ؛ فإنها جن خلقت من جن ، ألا ترونها إذا نفرت كيف تسمع بأنفها". وفى رواية أحمد بن حنبل "ألا ترون إلى عيونها وهيأتها إذا نفرت" انتهى .

هذا ما قاله أولئك المعاصرون ، وهو ضيق عطن منهم ، وإلا فإن وجود قوى روحانية ، وعوالم غيبية ، استترت عن حواسنا بأعيانها ، وتجلت لنفوسنا بآثارها ، وما تواتر من أخبارها - أمر محقق لا ريب فيه . ولنضرب لها مثلا القوات الطبيعية التى كانت مجهولة للبشر منذ أقدم أزمنة التاريخ ، كالكهربائية التى لو قص قاص ما سيكون من أمرها وغريب أعمالها ، على البشر وهم فى طور سذجتهم - لعدوه كذبا حبريتا ^(١) . وما نعرفه اليوم من خواص الكهرباء قليلة بالنسبة إلى ما ينتظر أن يعرف منها فى المستقبل ، وما يدرينا أن يخلف الكهرباء بآلية قوة أوقوات أخرى أغرب منها وأعجب . وهذا (الراديوم ^(٢)) على الأبواب ، بل قال "إسحق نيوتن" أكبر فلاسفة الإنجليز : إن البشر اليوم بالنسبة إلى ما اكتشفوه من أسرار الكائنات كأطفال على ساحل الأوقيانوس ظفروا يودعات براقة ، وشظايا أصداف ملونة لمساءة ، فشغلوا بها وحسبوها كل ما عند ذلك الأوقيانوس العظيم ، وما فى أعماقه من الطرف الموثقة ، والأعلاق النفيسة ، والكنوز الثمينة .

وإذا كنا لا نصدق إلا بما نشعر به بحواسنا فهذه أرواحنا التى فى أبداننا لا نراها ولا نسمعها ولا نشمها ولا نذوقها ولا نلمسها ، ولكننا نؤمن بوجودها ، ونعترف بعالمها ، فما عدا مما بدا ؟

وبعد فإن عالم الجن كعالم الملائكة من المغيبات التى أمرنا بالإيمان بها ، ولم نكلف رحمة بنا أن نروى من أخبارها وأطوارها أكثر مما ذكره الوحي لنا ، فلنعقل منه ما نعقل ، ولنكل أمر ما لا نعقل إلى الله ؛ فهو سبحانه وتعالى القادر على أن يعرفنا فى مستقبل الزمان من أمره ، ويكشف لنا من مكنون سره ، ما يكون عقدة اتصال بين العلم الصحيح ، والوحي الصريح .

(١) (كذب حبريت) خالص مجرد لا يستره شئ . . ويقال أيضا : كذب بحبريت .

(٢) الراديوم عنصر مكتشف حديثا ذُكرت فيه قوة إشعاعية هائلة تفوق قوة الكهرباء أضعافا مضاعفة بحيث يتوقع من وراء اكتشافها والانتفاع بها أعظم الأثر فى مصالح البشر وفوائدهم .

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾

ومعنى كون القرآن ((يهدي إلى الرشd)) — أنه يدل على الحق والصواب ، ويوصل إليهما .
وقوله ((ولن نشرك بربنا أحدا)) معناه أنهم قالوا لقومهم إنا آمنة بالقرآن ، وعملنا بأمره
وتعليمه ، فلن نجعل من بعد اليوم شريكا لله من خلقه .

وهمزات (إنه) في قوله ((وإنه تعالى جد ربنا)) (وإنه كان يقول) (وإنا ظننا) إلى
آخرها وهى بضع عشرة همزة — كلها مكسورة عطفا على (إنا سمعنا قرآنا عجبا) وهمزة (إنا)
هذه مكسورة لوقوعها بعد القول : فالمعنى إن أولئك النفر من الجن رجعوا إلى عشيرتهم وأبلغوهم
جميع هذه الأخبار معطوفا بعضها على بعض ، وقد أكدت كلها بكلمة (إن) التى هى أم المؤكدات .
ومن القراء من فتح هذه الهمزات كلها عطفا على ضمير (به) ، فيصبح المعنى : إنا آمنة بالقرآن ،
وآمنة بأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ، وآمنة بكذا وبكذا إلى آخر الآيات ، غير أن
بعضها لا يصلح معه تقدير فعل — آمنة — فيقدرله فعل آخر يناسبه من نحو — صدقنا —
و — علمنا — و — عرفنا — و — اعترفنا — وأعلمنا — و — شهدنا — على حد ما قالوه في قول
الشاعر : ” وزججن الحواجب والعيونا ” أى وكلن العيونا ، وقوله ” علفتها تبنا وماء باردا ”
أى وسقيتها ماء باردا .

ومعنى (جد ربنا) عظمتة وسلطانه ، أى أن العظمة والجلال الإلهى يابى ويتزهر عن أن يتخذ
لنفسه صاحبة وولدا ، إذ أنب مقام الألوهية ينافى هذا الاتخاذ الذى هو أثر من آثار العجز
أو الانقسام والتجزؤ .

يقول العرب : فلان جد فى عين الناس ، يعنون عظم أمره فى صدورهم ، ومنه حديث أنس
رضى الله عنه : ” كان الرجل منا إذا حفظ سورتي البقرة وآل عمران جد فى أعيننا ” ، أى عظم وأصبح
له مقام ، لما وفق إليه من حفظ هاتين السورتين الطويلتين .

وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنَ تَقُولَ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٢﴾

أخذ هؤلاء النفر من الجن يصفون لقومهم ما كان من تأثير الكلام الإلهي في نفوسهم ، وكيف صحح من عقائدهم ، وغير من أوهامهم ، وسردوا على مسامع إخوانهم حقائق استفادوها من جديد ، وقد كانوا عنصريين ، فذكروا أولا أنهم أقروا بتوحيد الله ، ثم قالوا : إن السفيه منهم - أى سفيه كان ، أو المراد به سفيهم الكبير الذى هو زعيمهم وولى أمرهم - كان يقول على الله قولاً شططاً ، تخطى فيه حد العدل والحق . والشطط : عدم الوقوف في الأمور عند حد الاعتدال . والسفه : خفة وطيش في المرة تنشأ عن خرق وجهل . فهم يقولون : إن ذوى الرياسة الدينية فيهم كانوا ينسبون إلى الله ما لا يليق بجانب قدسيته ، ويصفونه بصفات ينكرها العقل ، ولا يحلهم على ذلك إلا جهلهم وخفة حلومهم ، وكان أولئك النفر من الجن وسائر العامة يصدقون أولئك الرؤساء ، ويعتقدون في الإله سبحانه ما يلقنونهم إياه من الأضاليل ، مسوقين إلى التصديق بسائق التقليد والاستهواء ، أو بسائق الخوف من أولئك الرؤساء . أما وقد سمعوا القرآن ، واستناروا بنور هدايته ، فما عادوا يصفون إلى ما يقوله رؤسائهم ولا يخدعون به .

ثم إنهم اعترفوا أيضاً بشيء من غرارتهم وسذاجتهم هم أنفسهم مذ كانوا يظنون أنه لا يوجد أحد في البشر إنسا كان أو جناً يكذب على الله ويأثر عنه من القول ما لم يقله سبحانه . فهؤلاء النفر اعترفوا بأنهم كانوا يصدقون ويخدعون بما يقوله الكذابون على الله من الوحي الملقق ، والحديث المزوق ، ظانين صدق القائل ، ومستبعين صدور الكذب منه . وهذا معنى قولهم : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنَ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ . أما الآن - وقد سمعوا القرآن ، وأشرقت قلوبهم حلاوة الإيمان - فقد عرفوا أنه يوجد في الإنس والجن كذبة ملبسون ، يجب تحاميمهم ، ونبذ دعاويهم ، والاستعاذة بالله من مخازيهم .

وإن لنا معشر الإنس مغزى وعبرة من أقوال هؤلاء النفر من الجن : أن نتنبه كما انتبهوا إلى أنه قام فينا نحن أيضاً ملبسون ، يكلفوننا أن نصدق بكل منقول ، ولو كان مما يناقض العقول ، ويخالف ما قرره الإسلام من القواعد والأصول . فلا ينبغي إذن أن يكون أولئك النفر من إخواننا الجن أهدى منا إلى صحيح الإيمان ، ولا أشد تمسكاً بأداب القرآن :

فم فقد قامت الطيور تغنى لا يكون الحمام أطرب منا

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ

ومما قاله أولئك النفر لقومهم أمر بالغ في الغرابة يتعلق بأوهام الإنس في الجن . ذلك أن أناسا منا معشر البشر كانوا يعتقدون سلطة الجن ، وعظيم صولتهم عليهم ، فهم يعوذون بهم ، ويلجئون إليهم مستعطفين ضارعين ألا يؤذوهم ، فكان الرهط من عرب الجاهلية إذا أمسوا في وادٍ أو قفر وخافوا من الجن — لجئوا إلى الاستعاذة بعظيم الجن المسود فيهم ، فيقولون : ”نعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه“ ، ثم يبيتون آمنين . وكانوا إذا أصيبوا بمرض أو آفة علقوا على أجسامهم تامة وتعاويز يزعمون أنها تقيهم أذى الجن ، وكثيرا ما يلطخون تلك التعاويز بالنجاسة ليتعد الجن من حاملها ، ويسمون التعاويزة إذ ذاك تنجيسا ، ويجعونها على تنجيس . ويلقون على أنفسهم أحيانا ودعا وعظاما . وقد أدرك بعض عقلائهم قبح هذا وسخافته كامرئ القيس الذي يوصى زوجته ألا تتزوج — إذا مات وأرادت أن تتزوج — أحق معتوها من نمط من ذكرنا فيقول :

أيا هند لا تنكحى بُوَهَّ	عليه عقيقته أحسبا ^(١)
مرسعة بين أرساغه	به عسم ^(٢) يلتغى أرنا
ليجعل في رجله كعبا	حذار المنية أن يعطا

يقول : لا تنكحى أحق ما زال شعر رأسه محجرا من آثار العقيقة الباقية فيه — والعقيقة : اسم للشعر الذي يولد به المولود — وإن في رسغ ذلك الأحق فسادا واعوجاجا ؛ فهو قد شد عليه سيرا للاستشفاء مما عراه ، وهو فوق ذلك يتجول في البرية ليصطاد أرنا فيجعل كعبا في رجله فلا يموت بتعرض الجن له .

وقوله (من الجن) متعلق بمحذوف صفة لرجال أي إن رجال الإنس يستجيرون برجال صفتهم أنهم من الجن كما قلنا آنفا إن أهل الجاهلية كانوا يستجيرون برجال الجن الذين لهم سيادة فيهم .

(١) البُوَهَّ : الرجل الضاوي ، والطائش ، والأحق . والعقيقة نخزة كانوا يزعمون أن من تحتم بها سكنت روعته عند الخصام . والأحسب : الأبرص ، ورجل في شعر رأسه شقرة ، ومن ابيضت جلده من داء ففسدت شعرته فصار أبيض وأحمر . القاموس . المصحح .

(٢) رَسَع الصبي كنع شد في يده أو رجله نخزا لدفع العين ، ورَسَع كفرج فهو أرسع ، ورَسَع ترسعا فهو مرسع ومرسعة أيضا : فسدت أجفانه . والعسم : يئس في مفصل الرسغ تعوج منه اليد أو القدم . القاموس .
”به عسم“ جملة اسمية ، و”بين أرساغه“ حال مقدمة . المصحح .

فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾

وقال بعض المفسرين: إن قوله تعالى (من الجن) ليس صفة لرجال ، وإنما هو متعلق بفعل (يعوذون) فالمعنى أن رجال الإنس يستجيرون من أذى الجن برجال . وهؤلاء الرجال المستجار بهم هم من الإنس كالكهان والمنجمين والعرافين وسائر مستطلى الغيب : فخطباء الجن يقولون لقومهم : إن رجالا من الإنس ضعاف العقول يعوذون عند حلول المصائب والشدائد برجال من بني جنسهم الإنس ، مستجيرين بهم أن يدفعوا عنهم أذى الجن وغائلة الشياطين بما أوتوا من تجليات الأنوار ، وما استبطنوا من مستودعات الأسرار . وإن هؤلاء الرجال من الإنس الذين استجبر بهم يرونها فرصة سانحة لاستغلال أولئك الحمقى المستجيرين بهم ، واستنفاض ما في جيوبهم ؛ فلا ينهونهم ، ولا يبينون لهم جهلهم ، بل يزيدون في إيهاهم وتحذيرهم وإدخال الرعب في قلوبهم منا معشر الجن والشياطين ، ثم يأخذون في مداواتهم ودفع أذاها عنهم بالطلاسمة والأكاذيب ، ومختلف الأساليب . وإن هؤلاء الرجال المخترقين ، لهم الجن المؤذون ، لو كان المخدوعون بهم يعلمون .

فهذه كانت حال العرب قبل الإسلام ، وهذا ما نبههم إليه القرآن ، وحذرهم منه على لسان إخوانهم من مؤمنى الجنة .

وجد الإسلام العرب على عقيدة في الجن وأوهام من أمرهم نزلت بهم إلى حضيض البهيمية ، فأعلن أمر الجن بلسان الجن ، وقرر أن استجارة الإنس من أذاهم وهم وغى وضلال ، ثم نبه إلى أن رجال الإنس المستعاذ بهم كالكهنة والعرافين والمنجمين يزيدون أولئك المستعيزين المساكين (رهقا) وعتا ، ويدخلون على قلوبهم من الرعب والخوف منهم ما لا يطيقونه — كل ذلك ليمتصوا ثروتهم ، ويستثمروا بلاهتهم ، كما تستثمر البقرة الحلوب . وهذا معنى (رهقا) فهو اسم مصدر لأرهبه إرهابا بمعنى أعتبه وكلفه فوق طاقته . ولا جرم أن ضعفاء العقول يتحملون من عبء هذه الأوهام والشعوذات فوق ما تطيقه نفوسهم ، وتقوى عليه ملكاتهم ، فيعيشون في الوسوسة والخليل والتعاسة إلى ما شاء الله .

وهكذا ضيق القرآن الكريم دائرة الاعتقاد في الجن ، ورد البشر في أمرهم إلى حد محدود . فكمن نحن على أنفسنا بل على القرآن نفسه إذا كنا نعتقد في الجن والشياطين اليوم ما لا يعرفه عرب الجاهلية أنفسهم مما لو سمعوه عنا لضحكوا عجباً ، وأمعنوا منا هرباً .

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِّلسَّمِيعِ فَنَ سَمِعَ الْآنَ يَجْدُ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾

ثم قال خطباء الجن لقومهم : إن غفلة الإنس كغفلتكم أنتم يا معشر إخواننا الجن ؛ فهم يظنون كما تظنون أن الله يترك كلا الفريقين — الإنس والجن — من رحمته ، فلا يبعث إليهم رسولا ينجي عن أعينهم غشاوات الأوهام ، ويميط عن قلوبهم رين الأضاليل ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم . وكأنهم يقولون إن ظن الفريقين فيما ذهبوا إليه كاذب ، فهذا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد أرسله الله رحمة للإنس والجن ، وأنزل عليه القرآن الذي سمعنا آياته ، ودافع بيناته ، فوجدناه لا يتفق مع ما نحن عليه جميعا من العقائد والأوهام ، فأمطناها عن قلوبنا ، وطهرنا من لوثها نفوسنا .

[لمسنا] يراد من اللس الطلب وإن كان أصله المس باليد . وكثيرا ما نقول نحن اليوم نلتمس كذا أى نطلبه . ولى عندك التماس أى طلب . وهذا كالجس ، فإن أصله تعرف الشيء باليد ، ثم استعملوه فى طلب الخير وتعرفه ، ومنه التجسس والجاسوس . فقولهم ((لمسنا السماء)) يريدون به طلبنا أخبارها ، وحاولنا أن نتعرف أسرارها . و[الحرس] فى الأصل جمع حارس ، وهو حافظ الشيء . ثم استعمل استعمال المفرد ، وأصبح اسما للجماة الذين يحرسون السلطان . ولذا لا يقال فى واحده حارس ، بل حرسى ، أى منسوب إلى الحرس . ولو اعتبر جمعا ما صححت النسبة إليه ، لأن الأصل فى الجموع ألا ينسب إليها ، ودليل آخر وصفه فى هذه الآية بالمفرد وهو ((شديدا)) ولو اعتبر جمعا ل قيل فى وصفه شدادا . و[شهباً] جمع شهاب : الشعلة الساطعة من النار ، وهو أيضا اسم لما يرى فى سماء الليلة المصحبة كأنه كوكب منقضى ، وقوله ((وإنا كنا نقعد الخ)) يريد به إنا كنا من قبل نقعد من السماء مقاعد لأجل أن نسمع أخبارها أى مقاعد قليلة ذات صفة خاصة بحيث يتيسر لنا منها استراق السمع ، ولذلك نكر ((مقاعد)) . وقوله ((يجد له)) أى يجد معدا له ومهيئا فى طريقه . ويقال فى (رصدا) ما قيل فى (حرسا) من أن أصله جمع راصد ثم استعمل استعمال المفرد ، ومن ثم وصف به المفرد فقيل ((شهابا رصدا)) ولم يقل ((شهباً رصدا)) أى أن ذلك الشهاب مهياً فى طريق ذلك الشيطان المستمع يرقبه لينقض عليه .

وهذه مسألة ثانية من المسائل ذات البال التي قررها القرآن بلسان أولئك النفر من الجن تصحيحا لعقائدنا بشأن جنس الجن ومبلغ سطوتهم على الإنس ؛ فلا نذهب في الأوهام فيهم والمخاوف منهم كل مذهب ، قال أولئك النفر في الآيات السابقة إنهم استفادوا من سماع تلاوة القرآن أن الجن ليس من مقدورهم أن يؤذوا الإنس ؛ فليطمئن هؤلاء بالآ من هذا القليل ، ويقول الجن في هذه الآيات : إنهم يريدون — بالصعود إلى السماء — أن يعرفوا الغيب ، ويسترقوا خبر ما قدره الله وأراده في البشر ، لكنهم يطردون منها طردا ، ولا يوفقون إلى ذلك ، وأنهم كانوا قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم يظفرون بحاجتهم أحيانا ، فيلتقطون من السماء أخبارا ، أما اليوم وقد بعث صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن وتقررت فيه الحقائق فلم يعد للجن نصيب من ذلك ، يعني أن الجن والشياطين كانت لهم قبل الإسلام صولة ودولة ، أما بعده فقد سلبوا ما كان لهم من هذا القليل .

والسما في عرف جميع الأديان المثلة ساحة الملكوت الرباني ، ومجلى السر الروحاني ، وفيها عرش السلطان الإلهي ، ولوح التقديرات الأزلية المتعلقة بعالم الدنيا . وهي مسكن الملائكة : منها يهبطون ، وإليها يرجعون ، ومن ثم كانت قبلة الدعاء ، ومنتجى الرجاء ، وكان الكهان والمخرقون ودهاة البشر الذين يريدون التلعب بضعاف العقول واستغلال بلاهتهم — يستخدمون الجن في تعرف خبر السماء ، والوقوف على ما قضاه الله وقدره فيها ، وكثيرا ما ادعوا أن هؤلاء الجن يعلمون الغيب ، وأنهم يأتون به الكهان غضا طريا فيخبرون به الناس .

فأنت ترى أن حبال الكهان في الغواية والإضلال ، ومزالق البشر إلى الوهم والوسواس والخيال — كانت منحصرة تقريبا في الجن : من جهة الظن فيهم أنهم مسلطون مؤذون ، ومن جهة الوهم فيهم أنهم يعلمون غيب السماء ، وما خبائنه العناية الإلهية للبشر فيها ، وكانت هذه الأضاليل كثيرة الرواج ، شديدة الوطأة على عقول البشر في تاريخهم القديم حتى قبيل البعثة المحمدية ، فوضع القرآن والإسلام حدا لهذه المسألة ، وقرر بلسان الجن أنفسهم (أولا) أن الجن لا يؤذون الأذى الذي يخافه ضعاف العقول . و (ثانيا) أنهم لا يعلمون الغيب ، وأن الغيوب بشأن البشر في لوح محفوظ في السماء بعيد عن أن يصل إليه أولئك الجن الذين أعد لهم في طريقهم حفظة أشداء وشهب رواصد تمنعهم وتدفع في صدورهم .

ومغزى آيتنا هذه في إزالة الأوهام بشأن الجن ومعرقهم الغيب هو نفس المغزى في آية سبا : (فلما خر تيننت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) ؛ فكل من الآيتين

وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنٌ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٥٤﴾

أثبتت جهل الجن ثم جهل الكهنة والعرفان بأمر الغيب وما قدره الله في خلقه . كما أثبت القرآن أن الغيب لله وحده (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) ؛ فقد حجبه عن الخلائق أجمعين ، حتى سيد البشر وخاتم المرسلين : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب) نعم لا يعلم صلي الله عليه وسلم من الغيب إلا ما يأتيه به الوحي الصادق .

هذا ما استفاده أولئك النفر من الجن مذ سمعوا القرآن ، وهذا ما أعلنوه في قومهم ، وهذا ما أحبوا أن يعلمه الإنس أيضا مؤكدين خبرهم واعتقادهم بأبلغ أساليب الخطاب العربي المعهودة في لسان أهله ، ولا سيما افتتاح كل جملة بكلمة (إن) التي هي الأصل في التأكيد .

ثم إنهم أنكروا الحديث عن جهل الجن بنتيجة ينبغي أن يعيها كل إنسي وهي قولهم : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمَنٌ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ ، أي إنا معشر الجن الذين نزعمون فينا يا معشر الإنس معرفة الغيب واستراقه من السماء — لا ندري ولا نعلم ما الله فاعل في سكان الأرض ، وماذا قضاه وقدره عليهم في لوح تقديراته : أأراد وقدر شرا أم أراد وقدر رشدا : أي هداية وتوفيقا ؛ فلا تظنوا فينا معرفة شيء من ذلك بعد اليوم ، ثم لا تصدقوا الكهان بما يروون لكم عنا . هذا ما قالوه ، لكنه تعالى في الواقع ونفس الأمر قضى بالشر والشؤم والضلال على بعض من في الأرض من الأشخاص والأمم ، كما قضى بالخير والرشد وسعد الطالع لبعض الأشخاص ولبعض الأمم .

بقي بحث نحب أن لا يفوتنا ذكره ، وهو أن ظاهر هذه الآيات يفيد أن الجن بعد البعثة المحمدية منعوا من استراق خبر السماء بإرسال الشهب عليهم ، ولما أورد على هذا أن الشهب كانت ترى في السماء قبل البعثة — أوجب بأنها لم تكن من الكثرة إلى هذا الحد الذي وقع بعد البعثة بدليل قوله (ملئت) ، وهذا يدل على أن الحادث الجديد هو الماء والكثرة ، وكذلك قوله : (تقعد منها مقاعد) ، أي كما أولا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب ؛ أما اليوم فقد ملئت المقاعد كلها كما صرح به الفخر الرازي . وقد يقال : إن الشهب منذ خلق الله السموات والأرض ، وستبقى إلى ما شاء الله مادامت سننها الإلهية ، ونواميسها الطبيعية قائمة في هذا الكون ، غير أن القرآن جعل تلك الشهب بعد البعثة المحمدية رمزا وتنبها للبشر إلى أن الجن والشياطين لم يعد لهم بعد محمد صلي الله عليه وسلم وشرعه وقرآنه ما كان لهم قبل ذلك لدى الأمم القديمة الرائج فيها السحر — من السلطة والنفوذ والتأثير في عقول البشر بواسطة مخرفة الكهان والسحرة ودعوى الغيب والمزاعم الباطلة .

وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ

فالقرآن يهتف من فوق رؤوس الأمم والشعوب بأن العقل البشرى تحرر من هذه الأوهام بفضل القرآن وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام . ولكن هذه الشهب التي ترونها أيها البشر تنقض في السماء من وقت إلى آخر علامة لكم على ذلك فهي ترمز لكم وتشير إلى أن الشياطين مطرودون من السماء ، ^(١) محملثون ^(٢) عن حظائرهم برشق نبال تلك الشهب ، فلا تصدقوا من بعد اليوم دعاوى الكهان والسحرة الذين يكذبون عليكم ، ويتلاعبون بعقولكم .

ويشبه هذا ما جاء في التوراة من أن الله تعالى وعد نوحا وولده ألا يكون طوفان آخر مثل الطوفان الذي وقع لهم وأهلك البشر وكل حيوان ماعدا نوحا وأولاده ، وأنه تعالى جعل قوس قزح في الغمام علامة على عهده معهم ^(٣) : قال مفسرو التوراة : ولا ينتج عن هذا أن قوس قزح لم تكن موجودة قبل الطوفان ؛ لأن تكونها طبيعي كلما وقعت أشعة الشمس على قطرات المطر ، لكنه تعالى جعل ما كان — علامة لما سيكون ، ورمزاً إلى أنه تعالى لا يسمح من بعد اليوم بحصول طوفان كهذا . ثم ضربوا مثلاً لذلك صخرة ملقاة في أرض منذ القديم ، ثم قسمنا الأرض إلى قسمتين ، وجعلنا تلك الصخرة تحا وعلامة بين القسميتين ترمز إلى كل فريق أين تنتهي حدود أرضه .

وهكذا القرآن فإنه جعل إرسال الشهب الموجودة من قبل علامة على إبطال دعوى الشياطين والسحرة معرفة غيوب السماء بقصد إضلال البشر ، كما جعلت التوراة قوس قزح الموجود من قبل علامة على منع حصول طوفان آخر يهلك البشر بعد طوفان نوح عليه السلام .

ثم شرع في وصف ما كانوا عليه من التفرق والانقسام المؤدى إلى الضعف والانحزال ، ثم ما صاروا إليه بالإيمان والاتفاق على طريقة واحدة يرجى لهم بواسطتها الخير والإسعاد .

وقوله (الصالحون) صفة لمخدوف ، أى (إنا منّا) القوم (الصالحون) ، وهم الأبرار العالمون بما يرضى الله من اتباع أوامره الإلهية ، والتمسك بسننه الحكيمة ، والعكوف على العمل الصالح .

(١) حلاه عن الماء . طرده .

(٢) وقد ورد مثل هذا في حديث ابن عباس : "أمان لأهل الأرض من الفرق — القوس" ومعنى بالقوس

قوس قزح : المؤلف .

وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ طَرَأَتْ قِدْدًا

وقوله (دون ذلك) هو أيضا صفة لمحذوف، أي (ومنا) قوم (دون ذلك)، أي أدنى وأحط في مراتب العمل ومراعاة السنن من أولئك الصالحين . ولم يُعلم أكان هؤلاء الأدنون المنحطون عن أولئك فريقا واحداً ذا رأي واحد وسيرة واحدة ، أم كانوا على خلاف ذلك — حتى قال : ((كما طرائق قديدا)) ، فأفاد بهذا الاستئناف البَيَانِي أنه يتألف من مجموع الفريقين : الصالحين والأدنين — طرائق قدد .

و [طرائق] جمع طريقة مؤنث طريق ، وهما اسم للشارع الذي يُطرق ويُسلك ، ثم غلب استعمال الطريق في معناه الأصلي ، أعني الطريق المحسوس المسلك ، كما غلب استعمال الطريقة في الطريق المعنوي ، وهو مذهب الإنسان وسيرته التي يرسمها في حياته إلى آرائه ومقاصده .

و [القِدْد] جمع قِدة : القطعة ، من قد الشيء إذا قطعه . وطرائق القوم مقدود بعضها عن بعض ، ومقطوع جانب منها عن جانب ، فكل واحدة منحازة عن الأخرى ، مقطوعة عنها .

يريدون بهذا القول تذكير قومهم بما كانوا عليه من الفوضى بسبب تفرق أهوائهم ، وتباين مذاهبهم . وقد ساقهم إلى هذا التفرق الأثرة والطمع وحب الرياسة وجلب المنافع الزائلة . وهذا بالضرورة يؤدي إلى الشقاء وسوء الخاتمة . أما التفرق في الآراء بسائق الاستهواء ، وتلمس السعادة والحصول على نظام كافل للحياة الاجتماعية — فهو تفرق محمود نافع ، تحرص عليه الأمم الموفقة ، وترغب فيه ، وتسعى إليه بواسطة الصحافة والأندية ، وعقد المؤتمرات والجمعيات التي يؤدي تفرق الآراء فيها إلى معرفة الحقائق والتمسك بها .

فالفرد من الجن الذين خطبوا قومهم ذكروهم بما كانوا عليه من التفرق المفقوت ، ووعدوا أنفسهم جميعا — بعد أن سمعوا هدى القرآن وآمنوا به — بانتظام أمرهم ، واتحاد طريقتهم ، والتوفيق بين آرائهم ومذاهبهم ، فتتجه أبدا إلى الخير ، وتنصرف عن الشر .

وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا
 سَمِعْنَا الْهُدَىءَ آمَنَّا بِهِ ؕ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ؕ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾
 وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ

ثم قالوا لهم : ((وأنا ظننا)) أى علمنا واعتقدنا . والظن كثيراً ما يأتى بمعنى العلم . ((أن لن
 نعجز الخ)) أى لن نكون فى الأرض جبابرة أقوىاء يعجز تعالى عن أخذنا وإنزال قهره بنا .
 كما لا تقدر على الحرب والتفلى فنفوته ثم يعجز عن إلحاق بنا ، والانتقام منا .

يقولون لقومهم : إنا كنا من قبل نعلم ذلك ونعتقده ، ولكن لم يفدنا ذلك العلم ، ولم ينقذنا
 من بلاء ما كنا فيه من التفرق المشؤوم حتى سمعنا القرآن وآمنا به ، وانتفعنا بهديه .

ثم عادوا إلى ذكر نعمة الإيمان والشكر له تعالى على أن وفقهم إليها . ولا جرم أن فى ذكر
 النعمة وترديدها على الأفواه عناية بها ، وفى إعلان الحمد والتناء على مسديها استعادة منها .
 وهذا هو المقصود من قولهم : ((وأنا لما سمعنا الخ)) .

ومعنى ((لا يخاف بخساً)) أى انتقاصاً من حقه فى الثواب فيعطى أقل مما له .

ومعنى ((ولا رهقاً)) أى لا يخاف ظهما لا يطاق تحمله ، بأن يحرم الأجر والثواب بالمرة ،
 أو يحمل عليه من سيئات غيره ، وهذا رهق وأى رهق ، لكن المؤمن بربه آمن من ذلك .

وقد سبق التصريح من هؤلاء النفر الذين سمعوا القرآن بأنهم آمنوا به . فقولهم الآن : ((وأنا
 منا المسلمون الخ)) يريدون به تحذير قومهم وإيقاظهم ، فأدخلوا أنفسهم فى جملتهم وقالوا لهم إنه
 سيكون من مجموعنا فريق مسلمون ، وفريق قاسطون . وهذا على حد قوله تعالى : ((وإنا أو إياكم
 لعلى هدى أو فى ضلال مبين)) ، وهو من أساليب اجتذاب الخصم ، وتلطيف حدته ، واستلانة
 حريكته . فهم بهذا الأسلوب يحركون من عاطفة قومهم لطرد شيطان التفرقة والاختلاف من
 بينهم ، وليكونوا يدا واحدة فى الإيمان ، واتباع تعاليم القرآن . ويشيرون من طرف خفى
 إلى أنه سيكون منهم جميعاً أفراد قاسطون ، أى جائرون وحائدون عن سبيل الهدى والرشد ،
 وهم ضد المسلمين الذين استسلموا لله ، وساروا فى هذا السبيل ، فكأنهم يقولون ليت لم يكن فينا
 فريق قاسط ، بل نكون كلنا مسلمين ، إذ شتان ما بين الفريقين : من أسلم ومن قسط .

فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾
وَالَّذِينَ اسْتَفْتَوْا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

(فمن أسلم) واتبع الحق وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم كما فعلنا نحن (فأولئك تحروا رشدا) أي طلبوا الأحرى والأهدى من الطريقين مزايا اختاروا لأنفسهم طريق الرشدا والحق فاستقاموا عليه . وهو آخذ بهم إن شاء الله إلى الجنة . وهذا — وإن لم يذكر الكتاب كما ذكر العذاب بحطب جهنم في جانب القاسطين — مفهوم من ذكر موجه أعني تحرى الرشدا . والله تعالى أعدل من أن يعذب القاسطين ويدع المسلمين من ثوابه .

(وأما القاسطون) العادلون عن ذلك الطريق (فكانوا) بما اختاروه واستقرهوه (لجهنم حطبا) وقودا يلقون فيها ، ويصلون سعيها جزاء وفاقا لأعمالهم ، وسوء اختيارهم . وليس هذا الكلام من أولئك النفر إلا إيقاظا لقومهم كما قلنا ، وحضا لهم على النظر والتدبر في العواقب ، فلا يسلكون إلا طريق النجاة والفوز .

و [القاسط] من قسط إذا جار وحاد عن الحق ، ومصدره القسط بفتح القاف . ويكون [قسط] أحيانا بمعنى عدل : يقال قسط الوالى فى حكمه إذا عدل ، وهو وإن كان قليل الاستعمال بهذا المعنى فإن مصدره الذى هو القسط بكسر القاف كثير جدا . أما [أقسط] بالهمزة فهو بمعنى عدل ، واسم الفاعل منه مقسط أى عادل . ومنه قوله تعالى : (إن الله يحب المقسطين) وكأن همزته للإزالة ، فإذا قالوا : "أقسط الوالى فى حكمه" كان معناه أزال القسط بفتح القاف أى الجور والظلم ؛ فيكون "أقسط" موافقا لقسط قسطا بكسر القاف بمعنى عدل .

قوله : (وأن لو استقاموا الخ) أكثر المفسرين على أنه ليس من مقول الجن لقومهم ، وإنما هو من مقول الله موحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو عطف على (أنه استمع نفر من الجن) فى فاتحة السورة . ولعلمهم إنما جعلوه كذلك لقوله (أسقيناهم) ؛ فالله الموحى يقول : لو استقام أولئك القاسطون على الطريقة المثلى لأسقيناهم ماء غدقا . ولو كان من مقول الجن لقال "لأسقاهم الله ماء غدقا" وهذا القول ظاهر لا غبار عليه . ومع هذا فإنى أرى أن الألبق بالكلام المعجز ، والأكثر محافظة على تناسق جملة ، والتحام أجزائه — أن يبقى (وأن لو استقاموا الخ) من مقول الجن ، ومما حذروا به قومهم ، ولا سيما أن بعض المفسرين جعل الآيتين التاليتين : (وأن

المساجد لله الخ) ، (وأنه لما قام عبد الله الخ) — من مقول الجن أيضا ، فكيف يحسن هذا مع جمل (وأن لو استقاموا) من مقول الله لا من مقول الجن ؟ وكيف يحشر حشرا بين أطواء كلامهم وهو غريب عنه ^(١) ؟

وإذا صح جعلنا له من مقول الجن كان قوله (لأسقيناهم) واردا مورد الحكاية ، وأن الله هو المسقى لا النفر المتكلمون : على معنى أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقاهم ربهم ماء خدقا . لكن المتكلمين عدلوا عن الاسم الظاهر وهو ربهم إلى الضمير وهو (نا) حكاية لما يقوله الرب في وحيه وخطابه عادة للبشر ، فهو كقولك لمن تريد نبيه عن المعاصي ” إناك إذا تبت إلى الله أدخلناك جنة تجري من تحتها الأنهار “ ^(٢) تريد أنك أيها التائب تكون في جملة من يدخلون تحت وعد الله لأهل طاعته مذي يقول : أدخلنا وبوأنا وأزلنا ، وفي الكتاب آيات كثيرة واردة على هذا الأسلوب ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة طه : (قال فن ربك يا موسى ؟ قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال : فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى في كتاب . لا يضل ربى ولا ينسى . الذي جعل لكم الأرض مهذا . وسلك لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى الخ) ، وكان الظاهر أن يقول فأخرج به . ويشبه أن يكون منه قوله تعالى في سورة الأنعام : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) فقوله (نحن نرزقكم) بضمير المتكلم وارد مورد الحكاية عنه تعالى ، وكان الظاهر أن يقول : ” هو يرزقكم “ .

وقوله : (لنفتنهم فيه) وارد أيضا مورد الحكاية مع (لأسقيناهم) . ثم رجع الكلام في قوله بعد ذلك (ومن يعرض عن ذكر ربه الخ) ، (وأن المساجد لله الخ) — إلى أسلوبه الأول ونسقه السابق .

و ” الاستقامة على الطريقة “ السلوك فيها بصبر وثبات ودوام . والمراد ” بالطريقة “

(١) ما اختاره المؤلف هنا مبنى على ما ذهب إليه بعض المفسرين : من أن الآيتين التاليتين من مقول الجن ، وليس بلام ، فعلى قول الجمهور لا تجعلان من مقولهم ، بل يكون الكلام من هنا تقريرا لما ينبغي أن يعرفه الناس ويسيرا عليه بعد أن عرفوا قصة الجن . والكلام على هذا ملتحم الأجزاء ، متناسق الجمل . وعلى الرأى الثانى لا تكون الآية محشورة حشرا كما قال المؤلف ، بل تكون اعتراضا حسن الموقع ، لما فيه من التنبيه إلى سنة الله الداعية إلى الاستقامة على الطريقة المثلى ، وهو المقصود من قصة الجن كلها . المصحح .

(٢) إنما يصح هذا التوجيه في رأى لو كان المتحدث بمثل هذا الكلام من يصح له أن يتحدث عن الله تعالى كافي الآيتين اللتين استشهد بهما المؤلف بعد . على أن الأبلغ في العبارة التي ساقها أن يقال : إناك إذا تبت إلى الله أدخلناك الجنة... الخ باظهار الاسم الكريم بدل إضماره ، لتوكيد نسبة إدخال الجنة إليه تعالى ، فيكون أدعى إلى المسارعة في الامتثال . المصحح .

الطريقة الكاملة المرضية عند الله ، وهى طريقة أهل دينه وطاعته ، وسيرتهم التى لا يحدون عنها .
والضمير فى (استقاموا) يرجع إلى أولئك الذين لم يسلموا ولم يتحروا رشداً ، بل قسطوا وحادوا
عن طريق الرشد والحق .

يقول النفر من الجن لقومهم : قد يكون منا فريق لا يسلمون كما أسلمنا ، ولا يسلكون
طريق الحق كما سلكنا ، بل يقسطون ويضلون ، ويكونون خطباء لجهنم ، ولو استقام هؤلاء
القاسطون على الطريقة المثلثى التى يرضاها لهم ربهم : من العمل بطاعته ، واتباع سنته — لوسّع
عليهم الرزق ، وألان لهم العيش ، ولكانوا فى جملة الذين يقول فيهم (أسقيناهم ماء غدقا) .

و[الغدق] الماء الكثير النافع ، والماء مادة الحياة ، وأصل البركات ، وعلى غزارته
وجودته تتوقف صحة الأجسام ، ورفاغة العيش ، وطيب الإقامة ، ولم تعمّر مدينة من مدن البشر
أو يستبحر عمرانها إلا لأنها كانت مبنية على نهر متدفق ، أو ينبوع مغدودق . ولا سيما مدن
العرب الضاريين فى البوادي ، فإن المناهل والغدران غرضهم الأسمى الذى يطمحون إليه ،
ويحرصون عليه ، ويكثر بينهم التحاسد والتنافس فيه . وكمن غارة شنت ، ونار حرب شبت —
من أجل غدير ، أو اغتصاب ير .

وقالوا : قد جُنُنتَ ، فقلت كلا وربى ما جُنُنتُ ولا انتشيت
ولكنى ظلمت فكنت أبكى من الظلم الميّن أو بكيت
فإن الماء ماء أبى وجدى وبثرى ذو حفرت وذو طويت

وإذا أرادوا الدعاء لأحد بالحياة ، ولين العيش ، وسبوغ النعمة — قالوا : ”سقى له“ ،
و”سقاها الله“ ، كما يقولون : ”طوبى له“ ، و”حيّاه الله“ :

فمضى قوله : (لأسقيناهم ماء غدقا) لوسعنا عليهم الرزق ، وأجزلنا لهم النعم ، وبسطنا لهم
الدنيا ، يتقلبون من رغدها وغضارة عيشها فيما شاءوا وأحبوا .

فتوفر أسباب الحياة الطيبة ، ورغد العيش فى الأمم — إنما هو أثر من آثار تقوى الله ،
والعمل بطاعته ، وسلوك طريقته التى يرضاها ، كما قال هؤلاء النفر خطباء الجن لقومهم . غير
أن الماء الغدق ، وسعة الرزق ، وبسطة الحياة الدنيا — كما تكون ثواباً من الله للأمم على
استقامتها ، وحسن طاعتها واستمسكها بحبال سنته تعالى فى خلقه — تكون فى الوقت نفسه
فتنة تصبح الأمم فيها عرضة للخطر ، ومزلقاً تهوى منه إلى حضيض الشقاء ، والتعاسة والفناء .

لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ

وذلك يكون بعدول تلك الأمم عن الطريقة التي استقاموا عليها ، والتي كانت سببا لسعادتهم ، واعتلاء شأنهم .

فالله يرشد الأمم والشعوب إلى طريقة مثلى من دينه وحسن طاعته ومراعاة سننه ؛ فإذا استقاموا أفلحوا وسعدوا ، لكنهم — وهم في هذا الفلاح والسعادة — بسبيل الغفلة والذهول والزهو والغرور والتكبر عن الطريقة المثلى : طريقة الدين والحق والعدل وحسن العمل .

فما أحراهم ساعتئذ باليقظة والانتباه والتدبر ! ما أحراهم بفطر الحذر والاحتياط والاستمسك بجبل النجاة ! ما أحراهم أن يكونوا في هذه التجربة والمزلق الدحض ذوى أقدام ثابتة ، وحلوم راجحة ، وعزائم متينة ؛ كي يجتازوا الصراط ، ويتخطوا المزلق ، وينجوا بأنفسهم . اقرأ كتاب الله ، وتصفح التاريخ ، واستعرض أحوال البشر ، وطبق هذا الناموس الإلهي عليهم — تجده مطردا لا خلف فيه ، محكما لا وهن يعتريه .

إن هذا الدور دور الفتنة والتجربة بالتبسط في أفانين النعيم ولذائذ الحياة الدنيا — من أرباب الأدوار على الأمم ، وأشدّها خطرا على حياتها ، وإلى هذا الدور أشار تعالى مذكرا : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) ، وقال : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) . وكل ما ذكر الله في الكتاب من أخبار الأمم الماضية إنما ذكره تقريرا لهذا القانون الإلهي ، وكشفا عن أمره ، وتحذيرا من غوائله ، بل تنزل الوحي إلى ذكر ذلك لنا على لسان إخواننا من الجن — كما في هذه الآية — ليكون أدعى إلى الانتباه والاعتاظ والاعتبار .

ومحصل معنى الآية أن أولئك النفر من الجن قالوا لقومهم : إن الذين يستقيمون على طريق الحق يصلون إلى بحاج السعادة وطيب الحياة ، ولكن ليحذروا وقد بلغوا هذا الدور أن يبطروا ويشغلوا بزهرة الحياة الدنيا ولذائذها عن العمل بالحق والعدل وطاعة الله ؛ فإن سعادة الحياة فتنة واختبار ، كما أن شقاءها ومصائبها كذلك ، فكونوا أيها القوم من تلك الفتنة على حذر ، وهذا هو معنى قوله تعالى (لنفتنهم فيه) ولام (لنفتنهم) هي ما يسميه النحاة لام العاقبة ، وليست هي لام التعليل ، أى ليس المعنى أن الله يوسع عليهم الرزق ويفدق النعم لأجل أن يفتنهم وإنما المعنى أنه يفعل ذلك بهم جزاء طاعته ، واتباع طريقته ، ثم تكون عاقبة ذلك انتقالهم إلى دور خطر ،

وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

وموقف حذر، فيه يفتنون ويحربون ؛ فإن أحسنوا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه نجوا وساموا ، وإن خاسوا بالعهد ، واستخفوا بالوعيد والوعد — بادوا وقُصموا .

وقد فهم من هذا الشرح معنى قوله تعالى : ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه ﴾ ، أى من يعرض من أولئك الذين أسقيناهم ماء غدقا — أثناء اجتيازهم دور الفتنة والاختبار — عن وحي ربه ودينه والعمل بطاعته ﴿ يسلكه ﴾ يدخله ﴿ عذابا صعدا ﴾ أى فى عذاب صعيد ، وفعل [سلك] يتعدى بنى قال تعالى : (ما سلككم فى سقر) أى ما أدخلكم فيها ، لكنه هنا عدى إلى مفعوله بنفسه حملا له على فعل "دخل" ، يقال : "دخلت السوق" و "أدخلته الحان" من دون "فى" .

و (الصَّعْدُ) بفتحين وبضميتين بمعنى الصعود : مصدر صَعِدَ يصعد ، والصعود أكثر استعمالا منهما ، و "العذاب الصعد" هو العذاب الشديد الشاق ، وأصله من التصعيد فى الجبل ؛ فإنه مُنْصَب مُتْعَب ، بفعل العرب التصعيد فيه مثلا للشقة والنصب الذى يلحق المرء من أى شىء كان ، وتقول "تصعدنى الشىء" و "تصاعدنى" إذا شق عليك ، ومنه قول عمر رضى الله عنه : "ما تصعدنى شىء ما تصعدتنى خطبة النكاح" يريد ما شق على ولا غلبنى إلا هى ، أو هى من الصعود بفتح الصاد العقبة الشاقة كما قالوا "تكأدنى وتكأدنى" من العقبة الكثود أى شق على ومثله قوله تعالى : (سأرهقه صعودا) ، معناه سأسومه عذابا يشقى به كما يشقى المصعد فى الصعود .

والعذاب الذى يعترى الأمم بسبب إعراضها عن أمر ربها ، وعن مراعاة سننه ، والعمل بطاعته — من أشد أنواع العذاب ، وأكثرها حزا فى القلوب ، وإرماضا للنفوس .

وقد فسرنا "ذكر الرب" بالطاعة والدين واتباع السنن الإلهية ؛ لأن سعادة الأمم وشقاءها ، وسقوطها وارتقاءها — إنما يكون بهذا النوع من الذكر ، أعنى العمل ، أما الذكر اللسانى الذى تتعلل به الأمم حين غلبة الجهل والكسل والجمول عليها فإنه لا قيمة له من دون عمل ، ولا يدفع عنها الخطب إذا الخطب نزل . وقلميا نجد فى كلام الله كلمة "الذكر" إلا مرادها بها القرآن والوحي والدين وطاعة الله والخشية منه . أما الحركة العضلية أو الميكانيكية فما أبعداها عن مقاصد القرآن ! ! وما أضعفها أثرا فى نجاة الإنسان ! !

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ

ومما قاله أولئك الخطباء لقومهم مباهين بما سمعوه واستفادوه من الوحي الإلهي ﴿أن المساجد لله﴾ ، و (المساجد) جمع مسجد . والمراد به مكان السجود ، أو المراد به السجود نفسه ؛ فيكون مصدرا ميميا سميت به الصلاة تسمية للكل باسم الجزء كما تسمى أيضا ركوعا لذلك . فالمعنى أن الصلوات كلها التي يصلها أى شخص ، مسلما كان أو غير مسلم ، أو أن المعابد كلها للمسلمين كانت أو لغيرهم من أبناء المال الأخرى — هى لله ، أى ينبغى أن تكون خالصة له فهو الخلق الحقيقى للبشر ، ولا يحسن منهم أن يجعلوا صلواتهم أو معابدهم لغيره أو باسم غيره ، بل يجب أن يخصوه وحده بها ، ويخلصوا له العبادة فيها .

هذا ما قاله الجن لقومهم ، ثم فرغوا عليه نهيمهم لهم عن عبادة غير الله ، فقالوا لهم : ﴿فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ ، أى إذا كانت المساجد له وحده فلا تعبدوا معه سبحانه أحدا من خلقه . فالمراد بالدعاء هنا وفى قوله بعده (يدعوه) العبادة . وقيل ذكر الدعاء فى الكتاب إلا أريد به هذا المعنى ، أى العبادة . بل قالوا إن الدعاء مخ العبادة . والدعاء فى الأصل الطلب ، ثم صار يطلق على العبادة ؛ لأن من شأن العابد أن يطلب من معبوده ما لا يقدر عليه غيره . ومن ثم نهى المؤمن بالله أن يطلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله ؛ لئلا يكون فى طلبه هذا عابدا لذلك أو كالعابد له . قال تعالى : (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم) .

ولما أنهى أولئك النفر من الجن حديثهم أحبوا أن يختموه بذكر ما علموه من أحواله صلى الله عليه وسلم ، وقيامه بدعوة الناس إلى التوحيد ، وما كان من تكذيب الناس له ، وصبره على أذاهم ، فقالوا : ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه الخ﴾ ، وقد سمعوه صلى الله عليه وسلم باسم (عبد الله) تنبيها لقومهم إلى أنه مع ما هو عليه صلى الله عليه وسلم من رفعة القدر ، ونباهة الذكر ، واستجماع الكمالات فى ذاته الشريفة — ليس من شأنه أن يوسم بغير ميسم العبودية .

لا تدعنى إلا بعبادها فإنه أشرف أسمائى

فليس هو صلى الله عليه وسلم لها أو متأثرا فى الأرض ، ولم يقم ليكون جبارا من جبارتها ، ولا طاغوتا من طاغوتها . وإنما هو كما قال عن نفسه "عبد" ، أجلس كما يجلس العبد ، وآكل

كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبْدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾

كما يأكل العبد . وقد حض أمته على ألا يطروه كما تطرى الأمم أبطالها وعظماؤها وأنبياءها إلى درجة الألوهة ، ولكن ليقولوا عنه : إنه عبد الله ورسوله .

فالجن يقولون لقومهم : (إنه لما قام عبد الله) محمد صلى الله عليه وسلم (يدعوه) يدعو ربه ، ويعبده وحده من دون الأصنام والأنداد التي تعبدتها القبائل والأمم في ذلك العهد — هاج هؤلاء الأقوام ، وتألّبوا عليه من كل جانب بحيث (كادوا يكونون) من فرط كثرتهم وتجمعهم وتعاونهم وازدحامهم (عليه) لصمته عن دعوته ، وإسكاته عن تبليغ رسالة ربه — (لبداً) كاللبد أى تحيوط الشعر أو الصوف التي تلبدت ولز بعضها إلى بعض . و [اللبد] بكسر ففتح جمع لبدة بكسر اللام ويجوز ضمها فتجمع إذ ذاك على لبدة كغرفة وغرف . وهى اسم لكل شعر أو صوف متلبد . وسمى الشعر المتلبد على أكاد الأسد لبداً لذلك ، ويلقب الأسد به فيقال "ذو لبدة" وفى المثل "هو أمتع من لبدة الأسد" .

ثم قال الخطباء : وإن عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم لما تألّبت عليه القبائل تناصبه وتحاربه لم يقل لهم قول المخبولين الموسوسين ، ولا الجبارين المتكبرين بل (قال) لهم قول البررة المخلصين : إني يا قوم لم آت أمراً منكراً ، ولم أفعل ما أستوجب به منكم كل هذا الإعراض والنفور والإصفاق على عداوتي ومقاومتي (إنما أدعوا) وأعبد (ربى) الذى خلقنى وأمدنى من ضروب العناية والربية والتأديب بما صرت به بشراً سوياً ، وعبداء بطاعة ربه ملياً ، فأنا لا أكفر بكل هذه النعم ، (ولا أشرك بربى) وعبادته والإخلاص إليه (أحداً) من خلقه : الذين إنما قاموا به ، واستمدوا مكانهم منه ^(١) .

ما مر كان آخر حديث أولئك النفر من الجن مع قومهم ، ثم انتقل الوحي منه إلى الحديث معه صلى الله عليه وسلم معلمي له ، ومرشداً إلى أفضل الطرق وأمثالها في خطاب قومه من قریش ، ومحتاجهم فى الله ، وتخويفهم عقابه ، جاعلاً حاجة الجن لقومهم توطئة وتمهيداً ، بل نموذجاً ومثالاً ، فقال :

١١١ اقتصر المؤلف هنا على قراءة «قال» ، وفى تفسير الآلوسى : (وقرأ الأكثرون قال على أنه حكاية منه تعالى لقوله صلى الله عليه وسلم للترابيين عليه ، أو حكاية من الجن عند رجوعهم إلى قومهم وقراءة الأمر وهى قراءة عاصم وحزة وأبى عمرو — بخلاف عنه — أظهر وأوفق لقوله سبحانه «قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً» .)

قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا ﴿٢٢﴾

(قل) يا محمد في محاجة هذه القبائل التي ازدحمت عليك للبطش بك ازدحام شعر الابد : (إني لا أملك لكم ضرا) أى ولا نفعا — كما لا أملك لكم غيا (ولا رشدا) : لحذف "نفعا" من الأول لدلالة "ضرا" عليه ، وحذف "غيا" من الثانى لدلالة "رشدا" عليه ، فهو من جوامع الكلم الذى كثروا أمثاله فى الكلام المعجز .

يا محمد الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذبه قومه ومقاومى دعوته إلى أنه لم يقم فيهم لتكون له سيطرة عليهم ، ولا ليبدل ويغير ما قدره الله وقضاه فيهم من خير وشر ، ونفع وضر ، وغى ورشاد ، وإشقاء وإسعاد — كلا ! فإن ذلك كله ليس من مقدوره ، وإنما هو بيد ربهم ، وإليه مرجعه . وأنه هو صلى الله عليه وسلم لم يزد عن كونه واحدا منهم : أرسله الله ليلنهم وحيه وأمره ، ويدلهم على الطريق التى يريد ربهم أن يستقيموا عليها ، فيقدر ما يكون منهم من الهدى فى تلك الطريق وعدم الانحراف عنها يكون لهم من الضر والنفع ، والغي والرشد ، ثم يكون حسابهم على الله . بل (قل) لهم يا محمد فوق ذلك : (إني) أنا المرسل بتبليغ أمر الله إليكم (لن يجيرني) إن خالفت ، وأهملت ، أو أذنبت ، (من الله) إن أراد عقابي والتنكيل بي (أحد) من البشر (ولن أجِدَ من دونه ملتحدا) أى ولن ألقى إن هربت من عقاب الله وسطوته ملاذا ألتجئ إليه ، وآمن فيه من العقاب . سمي الملاذ والملجأ "ملتحدا" من "اللمح" وهو فى أصل معناه الميل : يقال لحد فلان إلى فلان إذا مال إليه ، ولحد السهم عن الهدف إذا عدل عنه ، ولحد فى دين الله إذا مال عن صراطه إلى مضايقه وبتياته . ولما كان الملجأ والملاذ يلتحد إليه الهارب للاعتصام به سمي ملتحدا ، وقد نفى أولا أن يجده صلى الله عليه وسلم مجيرا وناصرا من جنس البشر ، ثم عاد فنفى أن يكون له ملجأ ومعقل يأوى إليه من الأجناس الأخرى ، فإذا كان هو صلى الله عليه وسلم حبيب الله وصفيه من خلقه ، ومبلغ وحيه وأمره إليهم — معرضا للقهر والانتقام الإلهى إن خالف أو عصى أو قصر فى هداية أولئك الأقوام المرسل إليهم — فكيف يكون حالهم هم إذا عصوا وظلموا وتصاموا عن استماع أمر ربهم ، والعمل بما يرضيه ؟ لاجرم أن الأمر الإلهى ، والشرع السماوى — ناموس عام ، بديع الصنع والإحكام ، مطبق بدقة على جميع الأنام ، فن راعاه ، واستمسك بعراه ، سلم ونجا ، ومن استخف به ، وحاد عنه ، شق فى الحياتين ثم هوى .

إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ۖ (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْجَعُونَ مِّنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلِّ عَدَدًا ۖ (٢٤)

نفى الوحي عنه صلى الله عليه وسلم في الآيات السابقة كل طاقة وقدرة تحول بينه وبين إنفاذ المشيئة الإلهية فيه ، كما نفى عنه أن يكون مالكاً لشيء من مصير الخلق وأمر ضرهم ونفعهم ، وغيرهم ورشادهم ، لكنّه عاد فأثبت له صلى الله عليه وسلم حقاً واحداً ، وعملاً واحداً ، ووظيفة واحدة يملكها بإذن الله ، وهي تناولته أولئك القوم المكذبين (بلاغاً) جاءه (من الله) تعالى و"رسالات" وهي سور القرآن وآياته : أنزلت عليه من الله ليتلوها عليهم ، فمن سمع البلاغ ووعاه من المخاطبين ، وتقبل الرسالات وتدبرها ، وعمل بمضمونها - كانت له الجنة خالداً فيها أبداً ، (ومن يعص الله ورسوله) ، فيعرض عن سماع البلاغ وتدبر الرسالات والانتفاع بها - (فإن له نار جهنم) جزاءً وفاقاً لتكذيبه وإعراضه وسوء صليعه ، وقوله : (خالدين فيها) أى لا يثنى في العذاب إلى غير نهاية ، وإنما جمع (خالدين) ميلاً مع المعنى : وذلك أن (مَنْ) لفظها مفرد ، فأعاد عليها الضمير مفرداً فقال : (فإن له) ، أما معناها فعام شامل لكل عاص ، فلذلك جمع خالدين تمايلاً مع ذلك المعنى ، وفي الكلام - قبل قوله (ومن يعص الله الخ) - مقدراً أشرنا إليه بقولنا : "فمن سمع البلاغ ووعاه الخ" ، ثم عطفنا عليه قوله تعالى (ومن يعص الله الخ) ومثله كثير في آيات القرآن ومختلف أساليبه ، ولو ذكر فيه كل ما حذف منه من هذا القبيل لبلغ حجمه أضعاف ما هو عليه ، فسبحان من أنزله ، وبجيلة الإيجاز والإعجاز زينه وكلمه .

والضمير في قوله : (حتى إذا رأوا) يرجع إلى (من) باعتبار معناها الجمعي كما قلنا في خالدين ، وكلمة (حتى) غاية لمضامين الآيات التي وصف فيها إعراض المكذبين وتألبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث أشبهوا في تألبهم وتظاهرهم اللبد ، فالمعنى : سوف يستمر هؤلاء المعاندون في غيرهم وضلالهم ، واستخفافهم برسول الله وصحابته ، واستضعافهم لهم ، (حتى إذا رأوا ما يوعدون) أى حتى وقت معابيتهم ما أوعدهم الله به من العذاب والعقوبة : أما في الدنيا فإن مصيرهم فيها الخزي والخذلان والهزيمة وظهور أمر المؤمنين ، وأما في الآخرة فإن مأبهم فيها إلى النار وبئس القرار ، (فسيعلمون) عند رؤيتهم ذلك ، وتحققهم صحته (من أضعف ناصراً) معينا

قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾

وحاميا (وأقل عددا) نفرا وجندا : هم أو محمد عليه الصلاة والسلام . لا ريب أنه صلى الله عليه وسلم هو الأقوى ناصرا ، فإن ناصره الله تعالى ، وهو الأكثر عددا ، فإن جنده الملائكة الأطهار ، والمؤمنون الأبرار .

ويحتمل أن يكون المعنى أنهم سيعلمون يوم القيامة أن الله تعالى هو القوي العزيز القادر على التنكيل بهم ، والانتقام منهم ، فلا ينفعهم يومئذ أنصارهم وحلفاؤهم شيئا ، ولا يغني عنهم عددهم ونكاثر حصاهم قليلا .

كان صلى الله عليه وسلم كلما خوف المكذبين نار جهنم ، وحذرهم أهوال الساعة — أظهروا الاستخفاف بقوله ، وسألوه : متى تقوم هذه الساعة ؟ وطلبوا منه أن يعين لهم زمنها ووقت حلولها ، ويتخذون من جهلهم وقتها ، وإخفاء الله لها ، سبيلا إلى تكذيبها وإنكارها بالجملة ، والله في إخفاء الوقت الذي تخرب فيه الكائنات وتقوم الساعة حكمة هو سبحانه أعلم بها ، وربما كان لذلك تعلق شديد بحياة البشر ، واستتباب أمرهم ، وانتظام مصالحهم . وقد كانوا يلحون عليه صلى الله عليه وسلم في تعزف أمر الساعة ، فكان أحيانا يشاركهم في الاهتمام بها ، وترديد ذكرها ، حتى عاتبه ربه على ذلك في سورة النازعات فقال : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكرها . إلى ربك منتهاها) يعني أن أمرها غيب اقتضت الحكمة الإلهية ألا يطلع عليه أحد حتى أنت يا محمد ، فدع عنك كثرة اللهج بها .

وهكذا القرآن : كان كلما ذكر من أمر الساعة وتحقيق وقوعها أتبع ذلك ببيان أن زمنها مكتوم عن الخلق يجهله كل أحد إلا الله .

ولما ختم في الآيات السابقة الحديث مع قبائل العرب المتألمين عليه صلى الله عليه وسلم — بإبعادهم بنار جهنم والخلود فيها — كانوا يسيل أن يسألوه حسب شغلتهم : متى يكون هذا الذي تعدنا به ؟ قريب هو أم بعيد ؟ فقال الله لنبيه : (قل) لهم يا محمد (إن أدري) أى ما أدري (أقرب ما توعدون) من قيام الساعة بحيث أصبح متوقع الحول ، متظر الحصول كل وقت وأن (أم يجعل له ربى أمدًا ؟) يعنى أم هو غير متظر الآن وغير متوقع الحصول ، لأن الله جعل له أمدًا وأجلا هو بالغه ، فقلوه (أمدًا) واقع فى مقابل قوله (قريب) كما تقول : أقرية زيارتك أم لها أجل فهى مؤخرة إليه ؟

عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿١﴾

ثم وصف تعالى نفسه بقوله : (عالم الغيب) ، وفي سياق الآيات الماضية أمران اقتضيا وصفه تعالى بذلك .

(١) ما ورد على لسان أولئك النفر من الجن : أنهم لا يعلمون الغيب ، وأن الله قد حال بينهم وبين معرفة ما قدره في السماء بشأن الخلائق .

(٢) إخفاء الساعة عن متناول علم البشر ، وأنه لا معنى لاهتمامهم بها وتساؤلهم عنها من وقت لآخر ، فالغيب بوجه عام — وغيب يوم القيامة بوجه خاص — مما استأثر الله بعلمه .

(فلا يظهر) ^(١) أى لا يطلع (على غيبه أحدا) من خلقه .

و (أل) في (الغيب) للاستفراق ، أى أنه تعالى عالم كل الغيوب على اختلاف أنواعها وأشكالها والغيب ما غاب عنا معشر البشر مما لا نهتدى إليه بشيء من حواسنا ومشاعرنا ، أو بشيء من فراستنا وقياسنا واستنتاج عقولنا ، وكل ما أمكننا علمه والوصول إليه بل إحدى هذه الوسائل لا يكون غيبا ، بل لا يسمى غيبا بالمعنى الذى يشمله قوله تعالى (عالم الغيب) .

والغيوب التى استأثر الله بعلمها أنواع ، لكن منها ما للبشر فيه حاجة ، ولهم بالاطلاع عليه رفق ورحمة وفائدة كالوحي والشرائع والأوامر والنواهي الإلهية المغيبة عنهم ، والتى لا يبلغها علمهم ، ولن تهتدى إليها عقولهم ، فهذه الشرائع السماوية إذا بقيت مكتومة عنهم ، غير مبلغة إليهم — أضر ذلك بهم ، وأخل بنظام أمرهم ، وضيع عليهم السعادتين الدنيوية والأخروية .

وقد قام في البشر حكماء وفلاسفة وكهاتب ادعوا علم هذا النوع من الغيب المتعلق بمصالح البشر وانتظام أمرهم ، وكانوا يزعمون أنهم وصلوا إلى شيء منه بعقولهم أو رياضاتهم ، أو بواسطة الجن ، فنفى الله ذلك أولا عن الجن بلسان الجن أنفسهم ، ونفيه عنهم مستلزم لنفى

(١) ورد في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم سمع جوارى يفتن في عرس ريقن :

وأهدى لنا أكبشا تجبح في المربد
وزوجك في النادى ويعلم ما في غد

فقال صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب إلا الله ، ومعنى تجبح تتكلم وتجلس مستريحة ، والمربد الحظيرة . المؤلف .

قوله في «النادى» هو كذلك في الأصل وفي لسان العرب ، ولعله «في المتدى» ليستقيم وزن البيت . المصحح .

إِلَّا مَنْ أَرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾
لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ

معرفة عن الكهان بالضرورة ، ثم نفى في هذه الآية إمكان اطلاع أحد من البشر مهما ارتقى عقله ، وصح حكمه ، وصفا قلبه ، وأشرقت نفسه — على ما في غيب الله من الوحي والشرع الذي يتوقف عليه خير البشر وصلاحهم ﴿إلا من ارتضى من رسول﴾ — فانه تعالى قد يرتضى ويصطفى رسلا من خلقه يطلعهم بواسطة جبريل عليه السلام على ذلك الغيب السماوى ، فيبلغهم لآياه وحيا : توراة أو زبور أو إنجيلا أو قرآنا ، متضمنا ما يريد أن يخاطبهم به مما فيه صلاحهم وسعادتهم ، وانتظام أمر معاشهم ومعادهم .

وهذا هو المراد من الغيب الذى قال الله عنه إنه يطلع عليه رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام قل ذلك ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وذهب إليه أيضا ابن جريج ، وزر بن حبيش ، وابن واقد ، وابن زيد ، وقالوا : إن الغيب هنا بمعنى الوحي والشرائع كالغيب فى قوله تعالى : (وما هو على الغيب بضنين) ، أى ما محمد صلى الله عليه وسلم على الوحي والشرع الذى يلقى إليه بمتهم فيغير أو يبدل فيه .

ومما يشهد على أن المراد بالغيب ما ذكر — قوله تعالى بعده : ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ .

[سلك وأسلك] بمعنى أدخل وأرسل وبَّتْ ، و[الرصد] مر أنه بمعنى الحرس والحفظه ، وضمير (يديه) يرجع إلى (من) فى قوله (من ارتضى من رسول) باعتبار لفظها المفرد ، لكن لما كان معناها جمعا وهو كل رسول يرتضيه سبحانه ويصطفيه لنبوته أعاد عليها الضمير فى (أبلغوا رسالات ربهم) جمعا ، وقد مر نظيره فى قوله : (فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا) .

ومعنى ﴿ليعلم﴾ لأجل أن يقع تبليغ الرسالات وينكشف أمره للخلق ، فيتعلق علم الله به واقعا وقد سمي ذلك الوقوع علما كما سماه كذلك فى آية (ولنبأونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) وإلا فإن إطلاع الله رسله على وحيه ، ثم حفظه لهم من نسيان شيء منه — ليس لأجل أن يعلم الله هو ذاته ذلك ، كيف وهو يعلمه منذ الأزل وقد قدره وقضاه ، وإنما يرسل الله الرسل ويبيصمهم من النسيان لأجل أن يعقب ذلك إنجاز القدر الإلهى ، وتعلق العلم القديم ، وتكون

وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

نتيجته تبليغ هؤلاء الرسل رسالات ربهم ووجهه إلى خلقه ، فاللام في قوله (ليعلم) يشبه أن تكون ما يسميه النحاة لام العاقبة ويمثلون لها بقوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) وكما مر في لام (لنفتنهم فيه) .

فمعنى الآية إذن أنه تعالى عالم الغيب كله لا يطلع عليه أحداً من خلقه ، إنسياً كان أو جنياً ، حكماً أو كاهناً ، اللهم الا غيبه الذي في إطلاع الخلق عليه رحمة بهم واستصلاح لهم ، وهو شرعه السماوى ، وخطابه الأزلئ الإلهى ، فإنه يوحىه بواسطة أمين وحيه جبريل إلى (من ارتضى من رسول) ، أى إلى أى رسول من خلقه ارتضاه واختاره واصطفاه لذلك ، فيأمره بتبليغه إليهم ، وإنه تعالى (يسلك) أى يرسل ويبعث ويثبت من بين يدي رسله ومن خلفهم (رصداً) على معنى أنه تعالى يحوط رسله من كل جانب برصد من الحراس والحفظة ، وذلك صونا لهم ، وحفظاً من الوسوس والتخاليل ، أو من الذهول والنسيان ، حتى لا يتركوا بعض ما أوحى إليهم ، أو يذهلوا عنه ، أو يقصروا في تبليغه . وهذا كناية عن أنه تعالى ركز في فطرة أنبيائه مقدرة أو صفة بها يطبقون تبليغ رسالاته إلى خلقه من دون تفريط في شيء منها ، كما تقرر في "علم العقائد" ، ويسمون تلك الصفة "العصمة أو الأمانة" .

ثم إن إنزال الوحي ورسالات الكتب السماوية على الأنبياء وعصمتهم من التفريط فيها تكون نتيجته إبلاغهم تلك الرسالات إلى البشر ، وبذلك تتحقق المعلومات الإلهية ، وتم المشيئة الأزلية في إسعادهم وهدايتهم ، واستصلاح أمر دنياهم وآخرتهم . فالمراد من قوله (ليعلم) ليظهر وينكشف ويتحقق كما قلنا آنفاً . وقد زاد هذا المعنى وضوحاً بقوله بعده (وأحاط بما لديهم) أى أنه تعالى أحاط علمه بجميع ما لدى الأنبياء من الوحي والسرائع والرسالات ، فلن يفوته منها شيء ، ولا يتفلت حرف ، فهو مُحِيطٌ لها ، مهيمٌ عليها . وهو تعالى لم يُحِطْ علمه القديم بما لدى رسله فقط بل إنه (أحصى) ، وعلم علم ضبط واستقصاء وشمول — (كل شيء) من هذه المخلوقات . المنبثة في الأرضين والسموات (عدداً) أى حالة كون كل واحد من تلك الأشياء معدوداً مميّزاً عن غيره . هذا هو مبلغ علمه سبحانه بتفاصيل الأشياء الكونية وجزئياتها ، فكيف لا يحيط علماً بما عند رسله من وحيه ورسالاته التى أمرهم بتبليغها إلى خلقه ؟ وكيف يمكن لرسله عليهم الصلاة والسلام أن يفرطوا في تلك الرسالات ، أو يزيدوا أو ينقصوا ، أو يحرفوا فيها أو يغيروا ، وهو تعالى محيط بها محص لها ؟